

أدب مابعد الكولونيالية وآليات تفكيك الخطاب الاستعماري في تجربة فرانز فانون الإبداعية

Title : post colonial literature and the methods of the destructive discourse by franz fanon

عبد القادر العربي¹

¹ جامعة محمد بوضياف- المسيلة-(الجزائر) البريد الإلكتروني: kaderla14@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/06/01

تاريخ القبول: 2021/05/10

تاريخ الاستلام: 2021/04/26

ملخص:

أدب مابعد الكولونيالية نسق ثقافي ونظرية نقدية تحتاج إلى الاهتمام بها في المجتمعات التي تعرضت للإقصاء والتهميش، أمر يتطلب إعادة قراءة مأكُتَب أثناء الفترة الاستعمارية والذي كُتِب في لحظة التغيير الثوري ومرافقه من تحول في البنية الفكرية والتي عززت الكتابة في النص السردي بأصنافه والروائي خاصة، فيما بعد الكولونيالية والتي تمتد إلى اللحظة الراهنة والذي يحمل تساؤلات الهوية بكل إشكالاتها و "فرانز فانون" ظاهرة ويظل كذلك على المستوى الفكري والإبداعي يعبر عن النص الأفريقي عامة والجزائري خاصة، مما يعزز تحولات اللحظة والتحديث المتواصل في علاج آثار الاستعمار، لأن فكرة المركز مازالت قائمة رغم الكفاح الذي حمله قلم المبدع ولم ينته الاستعمار، والتبعية بقيت متواصلة تتطلب فكرة متجددة ووعيا جديدا في الجزائر وفي أفريقيا كما هو الحال في بلدان أمريكا اللاتينية وبعض البلدان الآسيوية لأنّ الفكرة تفتح أفقا لا محدودا من التأثير والتأثر بين المذاهب والأفكار وبين هذا وذاك لا ينقذ النص لما بعد الكولونيالي إلا المشروع المتوازن والذي يتجاوز إشكاليات الهوية .

الكلمات المفتاحية : أدب كولونيالي ، الهوية ، النظرية الثقافية ، نسق ثقافي .

Abstract:

The literature colonial aftermath is a cultural system and a theory that evolves criticism , seeking attention in the societies that got neglected for centuries , a thing that needs to re-read what was written at the colonial period and also got in a moment of revolutionary change and what change that followed in the intellectual structure that also served the writing in the narrative text including all its types and franz fanon

المؤلف المرسل: عبد القادر العربي

demonstrated this unique style of his and will always be intellectually and aesthetically unique , taking the African text in general and the Algerian in specific , which in return serves the change .

Keywords :

The colonial literature , the identit , the cultural system, the cultural theory.

1- مقدمة:

أدب مابعد الاستعمار يعدّ وجهة من أوجه تحديد الفترة التاريخية التي أعقبت جلاء الاستعمار الغربي ، وقد عبّرت عنها مجالات كثيرة " كالسياسة والاقتصاد والدراسات الأنثروبولوجية والثقافية واللغوية " فالإصطلاح الأدبي جزء من هذا الكلّ ولا يفهم إلا في هذه الأطر الواسعة ، لأنّه يجب أن نطلّع على الإبداع الذي تمّ رصده في السرديات الأدبية ويعدّ " فرانز فانون " أنموذجا للأدب المناهض للكولونيالية وما بعد الكولونيالية ، ويعتبر فكره الأدبي آلية لفهم أدب ما بعد الكولونيالية أكثر ، بحكم معاشته لوقائع المجتمع الخاضع لهذا النسق الفكري الذي ينظر إلى ذاته بدونية مقارنة بالفكر الكولونيالي ، وعليه يمكن طرح الإشكالات التالية

ماالنسقية التي يمكن الحديث عنها في الأدب مابعد الكولونيالي ؟

هل النقد الثقافي الكولونيالي في الفترة الاستعمارية أو بعد الاستقلال كان دائما ضد قضايا

الإنسان في البلاد المستعمرة ؟

ماذا قدّم فرانز فانون للنص مابعد الكولونيالية ؟

2- فرانز فانون ونسقية تفكيره :

المعروف عن فرانز فانون بأنه شخصية شديدة الحساسية (الميلي، 1970، صفحة 15) ، لأنه

يتصور بأنه وحيدا في محيط كله أعداء فهو متعطش لإثبات ذاته وتدخل على هذا الخط البشرية السوداء

التي ضاعفت شعور فانون بالعجز ، العنف حتى يحقق ذاته رغم أنه لا يريد العنف لذاته بل من أجل تحقيق مصيره ومصير الأمم المضطهدة وخاصة الافريقية منها ، وعليه كان لقاءه مع الثورة الجزائرية وقد مهد لهذا اللقاء مهنته .

بمستشفى الأمراض العقلية بالبليدة حيث استطاع أن يلمس قاسما مشتركا بين ذاته وبين الشعب الجزائري وهو حالة الاضطهاد مما زاد من تعاطفه مع الشعب الجزائري قبل الثورة ، حيث احتك بالجمتمع وتابع المظاهر المحزنة التي صار عليها الوضع وهي الأوضاع ذاتها التي نجدها في القارة الافريقية ، لكن اندلاع الثورة في الجزائر بالنسبة " لفانون " غير الفكرة إلى واقع وممارسة فوجد الرجل الافريقي يقف أمام المستدمر الفرنسي فالتحق بصفوف الثورة الجزائرية فرأى في ذلك تحقيق الانتماء الاجتماعي للشعوب الافريقية وقضاياها رغم أنّ " فانون " تكون في مناخ غربي يسوده التفكير المعروف بالفرنكفونية فدرس الفلسفة ويبدو أنّه اختار طريق الثورة لأنه استفاد من الحالات النفسية للمضطهدين الجزائريين وفهم مداها ، مثل حالات التعذيب التي تعرّض لها الجزائريون على أيدي المستدمر الكولونيالي ، واختياره لنهج الثورة كان انعكاسا لفكره الوجودي فهو كمن وجد ضالته المنشودة في أسلوب العنف والثورة كحل لجميع المشاكل والتخلص من الكولونيالية فيقول " إنّ الاستدمار ليس آلة مفكرة وليس جسما مزودا بعقل وإنما عنف هائج لا يمكن أن يخضع إلا لعنف أقوى. (فانون، معذبو الأرض، 1963، صفحة 37)

ففكر فانون يمجّد العنف الذي ينتصر على الاضطهاد بل اعتبر العنف هو دليل الوسيلة ودليل الغاية في آن الواحد لأنّ الهدف هو العمل على إماتة المستدمر، فالإنسان المستعمر يتحرر من العنف بالعنف وهو طريق يضئ المستقبل قد يعتبرها البعض حالة عاطفية لكنها فرضت ذاتها في تلك الأوضاع ، وعليه " ففانون " وضع معادلة وهي أنّ الاستدمار عنف هائج لا يمكن أن يخضع إلا لعنف أقوى مهما كانت نتائج هذه المعادلة الخطيرة بحكم أنّ العنف المطلق يؤدي إلى إهمال جانب هام من المعركة الثورية ، والمتمثل في وحدة الطبقات الاجتماعية والتي تحتاجها المجتمعات سواء في مرحلة الثورة أو في مرحلة البناء وما بعد الكولونيالية ، ربما يعود ذلك إلى أنّ " فانون " أصله غير الجزائري ولم يكتشف كل الجوانب الاجتماعية للكفاح الثوري الأمر الذي جعله يأخذ بالعنف لا غير ، وهو أمر نجد فيه التأثير بالفلسفة

الوجودية التي كانت رائجة في الفكر الفلسفي ، والتي تنظر إلى المستقبل بأبعاد تفوق اللحظة الراهنة وترسم أفقا يطمح إليه الإنسان وهو أمر يدخل في دائرة الإيجابيات التي استفاد منها " فانون " على المستوى الفكري .

3- فرانز فانون والحضور المابعد الكولونيالية :

" فانون " الطبيب والفيلسوف والأديب المعروف بنضاله من أجل الحرية وضد التمييز العنصري والذي عاش في الفترة مابين 1925 – 1961 م ، أصبح فكره وأدبه فاعلا بعد الاستقلال وحاضرا بعد وفاته والتي كانت مع بداية الاستقلال ، وهي مرحلة لتأريخ اللحظة السابقة تتماشى مع التغييرات ، لنجد فئة من الكتاب اختارت الخندق ذاته الذي رسمه " فانون " في كفاحه ضد المستعمر ، ويعدّ النص الأدبي السردى الذي كتب بالفرنسية مسارا للأدب مابعد الكولونيالية ، مسار يشبه مابعد الحداثة والتاريخانية الجديدة فهناك أوجه من التأثير والتأثر نظرا للعلاقات الجغرافية والثقافية التي جاءت موطننا لدراسات الحركات السابقة ، لكن تظل حركة مابعد الاستعمار معبرة عن فترة تاريخية لها خصوصيتها تساعدنا على فهم أوضح ويعدّ مصطلح ما بعد الكولونيالية مثل كل المصطلحات التي تشمل على ما بعد ، لا يعني بالضرورة مناهضة ماقبله ومقاومته ، وإنما يعني الوعي بالثقافات الأخرى التي وجدت بالمستعمرات وبالالتجاهات التي ظهرت على مستوى الإبداعات والكتابات الصادرة من أبناء المستعمرات أو من أبناء غيرهم لأنها تعد ردّا على خطاب المركز المحتل الغربي وترسيخ الهويات الثقافية المتنوعة والوقوف ضد النفي والتهميش .

ويعتبر خطاب مابعد الكولونيالية نظرية في الثقافة الجديدة الممتدة على مستوى اللغة والنقد الأدبي والدراسات السياسية والاقتصادية ، لأنه لا يتم فهم النص الذي يكتبه المبدع المابعد الكولونيالي إلا في ضوء التحليل الثقافي الشامل ، فتعد مراجعة نقدية من الداخل تقف أمام احتقار ثقافة الشعوب المتخلفة والتعامل معها باستعلاء .

" فانون " بتوقيعه السردى أَرخَ لأدب مابعد الكولونيالية وأسس له رغم أنه كُتب في لحظة الوجود الكولونيالي رغم أنّ فانون لم يتجاوز حضوره داخل الثورة الجزائرية الأربع سنوات ، لكن عطاءه الفكري كان من العمق والوفرة وتأثيره كان من الانتشار الذي جعله في نظر الكثير نقطة تحول في السردية مابعد الكولونيالية ، لذلك اهتم به الفيلسوف الفرنسي الوجودي " جون بول سارتر " وكتب مقدمة عن كتابه " معذبو الأرض " فقال عنه " بأنه يحمل في طياته الشفاء لأمراض أوربا لكنه كتاب يحمل وعدا بإحداث جراح عميقة في كبرياء الأوربيين " في تعليقه على قول " فانون " " لقد وضعت أوربا أقدامها على قارتنا ، فيجب أن نجرحها حتى تسحبها واللحظة تناسبنا (علي، 2018، صفحة 162)

إنّ التحرر كما صاغه في كتابه معذبو الأرض هو تحليل لعملية التحرر وتساؤل حول مستقبل الشعوب المضطهدة والتي لا يمكنها أن تتحرر إلا بعد تحرر الوعي الإنساني فتأسس الأدب المابعد الكولونيالي ظل مع الإبداع الجديد في النص الفرنسي وهو المركز في الرواية الكولونيالية ، فالأنا هو الهامش وفي النص الجديد ولدى الإنسان الجديد يعمل العقل على قلب موازين البطولة الروائية مثلاً ، فإذا كان الآخر الفرنسي هو مركز الرواية الكولونيالية والأنا الأهلي هو الهامش؛ فإنّ النص الروائي المابعد الكولونيالي أسس عكس هذه المعادلة خاصة في ظل انعدام نماذج روائية جزائرية بالعربية كافية للأخذ بها كنموذج ، ففي هذا الأدب لا نبحث عن المستوى الفني بل يجب الاهتمام بالحبكة الروائية والخطبة السردية أكثر، وفي ظل ذلك لا ننسى دخول الإيديولوجيا في الأدب ما بعد الكولونيالي مثل " الاشتراكية " ، رغم أنّ الأدب الكولونيالي اهتم بالعجائبي في قالب تهكمي يبرز معاناة الشخصية في هذه المجتمعات وهو وسيلة للكشف عن السطو والقهر الذي يقوم عليه الفكر الاستدماري ، فأصبحت السردية ما بعد الكولونيالية منظومة معرفية برزت خاصة مع " فرانز فانون " .

لذلك سعى " ادوارد سعيد " من خلال الاستشراق لإبراز فوقية الفكر الغربي الاستشراقي والهدف هو الرضى والخنوع لهذا المهيمن وبالتالي نلاحظ أنّ تشكيل الوعي الجديد يقوم برسم صورة نموذجية عن الذات والآخر في السرد " الفرانز فانوني " وهي جرأة من كاتب وفيلسوف وأديب وطبيب له حضور فاعل لنصه رغم تغييب الموت له خاصة على الساحة الإبداعية والافريقية عموماً ، لذلك يعتبر من نقائص

التفكير أن يهتم العقل بقضايا ومشكلات الأدب في العالم العربي والإسلامي وينسى العمق الاستراتيجي الافريقي والآسيوي والأقليات التي تعيش بين طهرانينا، ويعتبر بذلك " فرانز فانون " مساهما في ولادة النص المقاوم للمركزية الأوروبية والصرخة التي عملت على تفكيك منظومة فكرها وتقويض عقلانياتها ، فهي حالة تشكل صدمة أخرجت الوعي من المناطق التي حجز فيها بحكم الاستعمار ويتعرف هذا العقل على مأزقه الحضاري في فضاء جديد انتشرت أدبياته وخففت من نرجسية المركزية الغربية رغم محاصرة هذه الأدبيات السردية المابعد الكولونيالية لكنها نجحت في تأسيس هذا الخطاب الجديد ، والملاحظ أنّ كُتاب مابعد الكولونيالية يعيشون وضعية المهاجر المهمش ويسعون إلى تفكيك الخطاب المستعمر فهم يتوجهون ضد القومية ويعتبرونها فكرة امبريالية جاءت مع أوروبا، ومنه نجد الأدب الكولونيالي يواجه فكرة التعددية الثقافية وينظر إليها من زاوية المشاركة والتقاطع بين الهويات والدليل أنّ " فرانز فانون " نشأ في ثقافة مختلفة عن ثقافة المجتمع الجزائري لكنه أسس على المشترك في الدفاع عن الحرية ، هذا الحقل المعرفي لا يريد أن يتحول إلى حقل مضاف إلى حقول أخرى بل يريد أن يكون عملية تقوم على النقد الدائم للمعارف فتحول فكرة التبعية إلى قوة ذاتية لدى الأديب المابعد الكولونيالي ، والمتبع لنسقية هذا الإبداع يلاحظ مدى الترابط بين الأدب الذي كتب في العهد الاستعماري والأدب الذي كُتب ما بعد الاستعمار وخاصة الأدب الافريقي وأدب الزوج كنتيجة للإصطدام مع الاستعمار وهو أدب صاغه الشاعر السينغالي " ليوبولد سنغور " ووصفه بقوله " إنّ الزنجية تعبير هذا العصر عن ثقافة الزنجي الافريقي ، كانت أداة التعبير عند الافريقي في الزمن الأبيد.... (بعلي، 2007، صفحة 210)

فأدب الزوج ما بعد الكولونيالي يقوم على إعلاء شؤون الوظيفة الاجتماعية للكتابة أكثر من كونها تجربة فردية أو قوالب ثابتة فهي ثقافة أكثر من كونها عقلانية مرتبطة بإيقاع زماني ومكاني فهو أدب يدافع عن الأقليات ، وبالتالي فهو تأكيد على الاختلاف بين التميزات المعرفية والإبداعية والحضارية، فكل إنسان وعرق قادر على العطاء والانتاج والإبداع إذا ما توفرت الشروط المادية والمعنوية وعليه " فرانز فانون " نبّه من خلال أعماله إلى خطورة التمييز العرقي ، إذ يقول " فلاستعمار حين يعلي من شأن الجنس الأبيض على الشعوب غير البيضاء ، يخلق إحساسا قويا بالدونية داخل ذات هذا المستعمر ويقوده إلى

تبني لغة المستعمر وثقافته وتقاليده في محاولة لمواجهة هذا الشعور بالدونية (فانون، بشرة سوداء وأقنعة بيضاء، 2014، صفحة 73)

فهو هنا يتوجه إلى الكتاب الأفارقة بضرورة الابتعاد عن التسليم باستقلال الأدب الإفريقي وتأكيد على قواعد ومعايير جماليات الأدب الإفريقي ، والابتعاد عن النزعة التحقيرية الموجهة للواقع الإفريقي رغم أنّ واقع مابعد الاستدمار أدى إلى الهجرة إلى مراكز القوة وتداخل أدى إلى عدم استقلالية النص الإفريقي المهمش عن مركزه .

4- لغة أدب مابعد الكولونيالي :

إنّ الجانب اللغوي يعتبره البعض إشكالية لأنّ الكتابة بلغة الآخر الذي هو مركز الهيمنة يعتبر توظيفاً لثقافته لدى السرد المابعد الكولونيالي " ما بعد الاستدمار " لأنّ الكتابة بلغة المركز الامبريالي لا تنقل المعاناة الواقعية للمجتمع وأهل التجربة لما بعد الكولونيالية رغم أن الاستدمار خلق الازدواجية اللغوية وتنميتها بوسائل شتى وتبرز هذه الظاهرة على مستوى الكتاب الذين يبررون ذلك بقولهم " أن جميع البلدان تحولت إلى لغة خطاب موحدة " وهي الإشكالية التي نجدّها في الأدب الجزائري المابعد الكولونيالي والذي يدافع عن فكرة التمسك بلغة المركز، وإعادة تعيين موضعها في لغة الخطاب الإبداعي مما أثار إشكالية الانتماء والهوية والاثنية .

وفي هذا السياق لا تعتبر اللغة حاجزا على انتشار الفكرة لأنّ " النص الفانوني " رغم كتابته باللغة الفرنسية إلى أنه أسّس إلى خطاب فكري دافع عن المحلي وربما بقوة تجاوزت الكتابة بالعربية التي لا يفهمها إلا أصحابها ، أما فيما يخص تعدد الثقافات داخل المجتمع الواحد فيجب دمجها في الأدب مابعد الكولونيالي ضمن نسقها والذي يستوفي تلك الهويات حقوقها في الأطر الأهلية " الداخلية " بعيدا عن القمع والإقصاء والتهميش ، فاللغة إذا كانت إشارات ورموز ونصوص تحقق الاتصال والتواصل بين

المجتمعات فالمسؤولية تقع على الكاتب والمبدع في توظيف اللغة المناسبة لخدمة قضايا العقل الما بعد الكولونيالي، بحضوره الفاعل وتفاعله داخل صيرورة الكتابة في أجناسها وأبعادها الثقافية والفكرية ولا أعتقد بأن ذلك سيشكل عائقا على التواصل بين مبدعي أدب ما بعد الكولونيالية بل الجميع يهدف إلى قراءة الواقع ومواجهة الفكرة بالفكرة ومنح الحضور لأولئك الذين على الهامش بكل المخيال الذي كان قبل الاستعمار وأثناءه وما بعد الكولونيالية .

خاتمة :

أدب ما بعد الكولونيالية نسق ثقافي ونظرية نقدية تحتاج إلى الاهتمام بها في المجتمعات التي تعرضت للإقصاء والتهميش لقرون ، أمر يتطلب إعادة قراءة ماكتب أثناء الفترة الاستعمارية والذي كُتب في لحظة التغيير الثوري ومرافقه من تحول في البنية الفكرية والتي عززت الكتابة في النص السردي بجميع أصنافه والروائي خاصة ، فيما بعد الكولونيالية والتي تمتد إلى اللحظة الراهنة والذي يحمل تساؤلات الهوية بكل إشكالاتها و " فرانس فانون " ظاهرة ويظل كذلك على المستوى الفكري والإبداعي يعبر عن النص الأفريقي عامة والجزائري بصفة خاصة، مما يعزز تحولات اللحظة والتحديث المتواصل في علاج آثار الاستعمار، لأن فكرة المركز مازالت قائمة رغم الكفاح الذي حمله قلم المبدع ولم ينته الاستعمار، والتبعية بقيت متواصلة تتطلب فكرة متجددة ووعيا جديدا في الجزائر وفي افريقيا كما هو الحال في بلدان أمريكا اللاتينية وبعض البلدان الآسيوية لأن فكرة المابعديات تفتح أفقا لا محدودا من التأثير والتأثر بين المذاهب والأفكار وبين هذا وذاك لا ينقذ النص الما بعد الكولونيالي إلا المشروع المتوازن والذي يتجاوز إشكاليات الهوية ، التي لاتخدم النظرة الشاملة والتي تقوى على مواجهة المركز والذي تتلون خطابه وتجدد في إطار النظرية الثقافية الجديدة ، وهذا لم نبغعه بعد ربما يعود هذا إلى الاختلافات غير الجوهرية والتي يراها البعض جوهرية، لخلق توازنات سردية تربط الخطاب المابعد الكولونيالي الجزائري بالأفريقي والذي تشترك فيه مع الأساسيات الإبداعية لأبعاد أدب المابعد الكولونيالي .

المراجع:

- حفناوي بعلي. (2007). مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن "المنطلقات، المرجعيات، المنهجيات" (المجلد 1). الجزائر: الاختلاف.
- زينب المليلي. (أوت, 1970). فرانز فانون والعنف. مجلة المعرفة.
- فرانز فانون. (1963). معذبو الأرض. (سامي الدروي، و جمال التروسي، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الطليعة.
- فرانز فانون. (جانفي, 2014). بشرة سوداء وأقنعة بيضاء. مجلة أوراق.
- لونيس بن علي. (2018). ادوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق الى نقد الرواية الكولونيلية. الجزائر: دار ميم.